

استنباطات لمعالم المقاربة الأنثروبولوجية للاتصال في الطرح الخلدوني "مقدمة

العلامة ابن خلدون"

الأستاذة: محمد بلقاسم صابرينة¹

¹ جامعة وهران _1_ الجزائر.

mohamedbelkacemsabrina@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/08/03 تاريخ القبول: 2021/08/30 تاريخ النشر: 2021/10/07

الملخص :

تعالج هذه الورقة البحثية إشكالية توظيفية المفاهيم المرجعية في الفكر الخلدوني من مقاربة انثروبواتصالية .

Résumé :

Cet article regroupe les éléments fondamentaux qui formule la pensée kheldounienne , d'une approche intropocomunicationnelle

الكلمات المفتاحية :

- العمران ، الغلبة ، الملك ، القبيلة
- الوازع ، الصنائع ، المعاش
- الانثروبولوجيا ، الاتصال

المؤلف المرسل: محمد بلقاسم صابرينة

مقدمة مع طرح الإشكالية:

الحضارة طرح شاسع، من صور شساعته، تباين التصورات بين المفكرين في تحديد المفهوم، بالإضافة إلى الاختلاف المقارباتي في تناول الموضوع المذكور، وأسس بنائه المفهوماتي، ولعل من بين الإسهامات المذكورة كتاب "د. سليمان

الخطيب"، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، منوها بالطرح الخلدوني، من حيث أهمية تضمين الفكرة الدينية في الجوهر الحضاري، وهو نفس البعد الذي نحى نحوه مالك بن نبي في خطابه الفكرية.

رؤية قاربها رؤى غربية، كأراء "جوستاف لوبون" في الآراء والمعتقدات، وان الدول إنما تتأسس تاريخيا على معتقد صحيح كان أو خاطئا، دون إهمال ما ذهب إليه "تويني" في اعتماد الأفكار الدينية لقيام أية حضارة، وطرح "ديورانت" الذي يعتبر الانتقال من الاضطراب إلى الاستقرار نقطة ميلاد حضاري، هذا المفهوم الذي لا ينفك عن الإنسان وحقيقة الاجتماع البشري الذي هو عمران العالم، ليتدخل الاتصال كحلقة تفصيلية، فاعلة وفعالة في تحريك دواليب الاجتماع، وبعث الحراك الاجتماعي، وتحصيل التغيير في إطار تطويري، تنصهر هذه المتغيرات في بوتقة الأنثروبولوجيا، كعلم يتناول الإنسان، في اجتماعه وإنتاجه الثقافي، وأنماط عيشه غاية وجوده.

ولعل مقدمة ابن خلدون، أشد طرح حاول تفسير هذه المعطيات ليطمحور

الإشكال التالي:

- كيف أسهم الخطاب الخلدوني المتجلي في المقدمة، من خلال إدراج مفاهيم اجتماع البشر في التأسيس لعلم الإنسان، والإدلاء بقراءة تفسيرية تتقاطع فيها عدة مقاربات علمية؟

بصيغة أخرى: كيف يمكن استثمار القراءة الخلدونية للإنسان في اجتماعه

في استقراء المقاربة الأنثروبولوجية الاتصالية؟

الفرضية: بشكل فقرة، لتداخل المتغيرات.

تعتبر المقدمة، حسبما أفصحت عنه الدراسات المتناولة لها عن شمولية

الطرح في التأسيس لعلم شمولي تعددت مقاربه بتعدد الطبع الإنساني، واختلفت مفاهيمه باختلاف طبائع الاجتماع، أصول العادة، وقواعد السياسة.

المفاهيم

العصبية:

جاء في لسان العرب

عصب الشجرة يعصها عصبها ضم ما تفرق منها بحبل ثم خبطها ليسقط ورقها.

وروي عن الحجاج أنه خطب الناس بالكوفة فقال: لأعصبنكم عصب السلمة، السلمة شجرة من العظام: ذات شوك.

العصب اللي ومنه عصب التيس والكبش

ومن أمثال العرب: فلان تعصب سلماته، يضرب مثلاً للرجل الشديد العزيز الذي لا يقهر ولا يستدل.

تعصب بالشيء واعتصب تقنع به ورضي.

عصبة الرجل: بنوه وقربته لأبيه، العصبة الذين يرثون الرجل عن كلاله من غير والد ... فكل من لم تكن فريضة مسماة فهو عصبة.

العصبة والعصابة: جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين وفي التنزيل ونحن عصبة.¹

الغلبة، مما ورد في لسان العرب التالي:

غلب، غلبه يغلب غلبا وهي أفصح، وغلبه ومغلبا ومغلبة قال أبو المثلثم:

رباء مرقبة، مناع مغلبة ركاب سهيلة، قطاع أقران

الغلبة والغلبى والغلبى أي أيام الغلبة وأيام من عزب.

غلب على فلان الكرم أي هو أكثر خصاله.

المغلبة: الغلبة، قالت هند بنت عتبة ترثي أباهما

¹ - الامام العلامة جمال الدين، أبي الفضل محمد بن مكرر ابن منظور لسان العرب، الجزء 15 ط، دمشق، مركز الشرق الأوسط، 2011، ص 323-324-325.

يدفع يوم المعلبت يطعم يوم المسغبت

وتغلب على بلد استولى عليه قهراً¹

بعض نماذج المدارس الغربية للأنثروبولوجيا:

- المدرسة الوظيفية:

الوظيفة تهدف إلى دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها عمليات أو آثار لبناءات اجتماعية.

ومن ذلك نستلهم ما يشير إليه الهام الجزء في الكل كعمليات أو آثار لبناءات اجتماعية معينة كاتساق القرابة.

من الذين استخدموا المفهوم أو القراءة الوظيفية "ميرتون" قاصداً بها الآثار أو النتائج التي يمكن ملاحظتها المؤدية إلى تحقيق التكيف في النسق وذلك على مستويين الوظيفة الظاهرة والوظيفة الكامنة، ذلك انطلاقاً من المنطق العام لوظيفة "سبنس" العضوية، خلاصة الطرح: أن التغير الاجتماعي يطرأ على البناء الاجتماعي ثم يتبعه تغير وظيفي لأجل تحقيق وجود النسق الاجتماعي.

كما أن التغير الاجتماعي يكون تدريجياً، لا يعتمد الحسي الفجائي، قد تتفاعل فيه عوامل داخلية وأخرى خارجية.

- المدرسة التطورية:

المدرسة التطورية فسرت الثقافة وأعطتها بعداً آخر على مستوى الزمان والمكان المحتوى مقتضيه وجود سيرورة تطورية.

من إسهامات المنظرين فيها نظريات "داروين"، صاحب كتاب "أصل الأنواع" بالإضافة إلى كتاب "ياخوفن" "حق الأم" الذي توصل صاحبه إلى أن الأسرة الأوروبية هي نتيجة أو حصيلة تطورات.

¹ - نفس المرجع السابق، ص 114-115.

أما الرسالة الأخرى فتنتقل بتطور الثقافات والمجتمعات بشكل يطرح مفهومي: التسلسل والثبات، لتتوالى الحلقات في النسق الواحد وهو ما تمت مفهمته بالتتابع التطوري الثابت. ومن النقد الموجه لهذه المدرسة، إنكار الخصوصيات الثقافية، والقول بمرحلة اجتياز قنوات متشابهة إلى حد التماثل. في حين أن "مورجان" أشار إلى أن الحاجات البشرية في الظروف المتشابهة تميل إلى التماثل، طارحا شروطا ضمنية تعني أن التماثل في حركة التطور ليست مطلقة بالنسبة للأمم والشعوب.

المقاربة الأنثروبولوجية الاتصالية:

أنثروبولوجيا الاتصال من خلال الأبعاد المفاهيمية لـ Yves winkin في كتابه «Anthropologie de la communication de la théorie au terrain»

من خلال ارتكازها على مقاربات اتصالية في الجزء الأول المتراوحتين بين la conception télégraphique»¹

المقاربة التلغرافية:

واعتماد نموذج شانون وويفير من خلال النموذج الخطي في التبادل القصدي للرسائل، مع إدراج الطرح السبرنطقي بما ينطوي عليه من التحكم، واستعمال الإنسان.

مع الإشارة إلى فضفاضة ما قد تحتويه الرسالة القصدية وتعددها اللغة إلى

الموسيقى، الفن بأشكاله والمسرح

تصور الجوق الموسيقي «une conception orchestrale»²

¹ - Yves winkin, anthropologie de la communication, de la théorie au terrain, édition Boeck université collection 1996 p 54.

² - Yves winkin, anthropologie de la communication, de la théorie au terrain, édition Boeck université collection eultere et communication, Bruxelles, 1996 pages 130.

حيث يتحول مفهوم الاتصال ليقارب معاني كلمة شائع ومشارك communion وذلك من خلال ما نعى نحوه Bateson و Bird wistell من خلال دراسة الاتصال عن طريق الجسد في الحركة.

وان كل حدث له خصائص اتصالية.

L'étude de la communication par le corps en -1
mouvement.

Taat événement of forent des aspes communicatifs.¹ -2

بالإضافة إلى اعتبارات أخرى:

أ- الاتصال كسلوك للكلية الثقافية.

ب-الاتصال كفاعل في البنية الثقافية.

ت- إعطاء أهمية للسياق le contexte أو النظام le système.

فيما يتعلق بظهور أنثروبولوجيا الاتصال l'émergence d'une
anthropologie de la communication.

كما ذكر أعمال "كوفمان Goffman" في دراسة السلوك المتولد داخل
المنظومة الاجتماعية.

من مفاهيم هذا الأخير أي كوفمان Goffman:

1- لغة الجسد langage du corps

2- لهجة الجسد dialecte corporel

بالإضافة إلى دور الحالة الاجتماعية والاقتصادية - le statut socio
économique

مما يدرج في الإستراتيجية المحاسبية لـ Bird wistell la stratégie
calculatrice

¹ - IBID P 54

من الجانب المنهجي فهناك دور الملاحظة بالمشاركة l'observation participante في دراسة الاتصال وجها لوجه face à face مع الأخذ بعين الاعتبار للصنفين:

الملاحظ للمشارك مشاركة كلية participant complet

مشاركة كملاحظ¹ participant comme observateurs

بعض نماذج الاجتهادات في استنطاق الطرح الخلدوني.

من مفاهيم جورج لبيك في كتابه السياسة والدين.

من النقاط المهمة التي ذكرها جورج لبيك في كتابه السياسة والدين عند

ابن خلدون:

1- أنه يتسنى اختزال المقدمة في مفاهيم أساسية.

2- أن ابن خلدون يطمح إلى تأسيس علم شمولي يكمن أن يحمل اسم

تاريخ أو سوسولوجيا أو أنتربولوجيا ولا يهم هنا كونه يتحرك قبل كل شيء في أفق الإسلام.²

3- أن المقدمة تطرح منهجا يسعى إلى تفسير الحضارة وان المنهج يرسم

العلم ويوضح معالمه من خلال الحقل التطبيقي مع وجود تراتيبة مفهومية وذكر نظام العقل.

4- موضوع العلم فهو العمران أو الاجتماع البشري وما يلحقه من عوارض.

5- من إدراج تساؤل: هل أن ابن خلدون أبدع المنهج النقدي في العلوم

الإنسانية؟.

¹ - IBID P 116.

² - جورج لبيك: السياسة والدين عند ابن خلدون، الجزائر، دار الفرابي، 2008، ص 18.

6- كما استخدم الانتقال من الأعم إلى الأقل عموماً، مستخدماً مبدأ التفسير العلمي إذ يفرض التفسير القائم على التأمل في المحرك الأول باسم العلية البشرية الوحيدة.

7- أما قوله في ثنائية "البدو، الحضر": فيها عناصر الأثنولوجيا، علم نفس مقارنة، جيوسياسية، دينامية اجتماعية.

واعتبر الخطاب الخلدوني عقلياً ذو مقاصد عقلانية لإبراز الروابط بين الظواهر والبحث عن القوانين.

ب- من مفاهيم د. عبد المجيد ميزان في كتاب النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون.

من النقاط التي تعتمدها أهمية لدى د. عبد المجيد ميزان وطرحه النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها من الفكر الإسلامي والواقع الاجتماعي ما يلي:¹

1- أهمية المنهج الخلدوني بصفته المنهج الذي يحاول التوصل إلى هذه الإجمالية الأنتروبولوجية في أبحاثه.

2- استخدام جزئية الوصف مع المحايدة.

3- وصف الوضعية الاقتصادية للمجتمع الإسلامي في القرون الوسطى.

4- النظرة المعمقة لبعض المفاهيم، قصد الإيحاء بتصورات موافقة.

5- إدراج تصور السنة المثالية كأوطوبيا otopie وطرح إعادة الفردوس المفقود.

6- المثالية الواقعية عند ابن خلدون.

¹ - د. عبد المجيد ميزان: النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، 2001، ص 29.

7- مفهوم الجماعة الإسلامية، كتعبير استحدثه د. عبد المجيد مزيان للتعبير عن الروح الجماعية الموجودة في المجتمعات الضيقة.

8- الواقع الحي.

9- عبرة قياس الأحداث.

ج- من مقاربات مالك بن نبي:

مالك بن نبي الذي تتجلى روح الخطاب الخلدوني في تحليلاته وكتاباته، يجعل الثقافة إشكالية تتمظهر من خلال مثال مثله وفكر أشاده: "تراث ابن خلدون قد ظهر في العالم الإسلامي وهو مع ذلك لم يسهم في تقدمه العقلي أو الاجتماعي لأن هذا التراث في ذلك العصر كان يمثل فكرة لا صلة لها إطلاقاً بالوسط الاجتماعي".¹

فللثقافة عنده معنى اجتماعي، حين توافق الفكرة الوسطى الاجتماعي الملائم، حتى أنه يفترض وجود علاقة عصرية ترابطية بين عالم الأفكار وعالم الأشياء.

ويتخذ جوهر الحكمة في العلاقة التبادلية بين الفرد ونمط حياة مجتمع معين.

أما في كتابه "شروط النهضة، فيبين معالم ما أسماها القابلية للاستعمار، واضعاً نقطة الفصل بين عالم الأفكار وعالم الأشخاص، حيث دعم المستعمر النزعة المرابطية لئتمحضى عنها الجدل السياسي الذي لا يرقى إلى مستوى السياسة أو عالم الأفكار.

¹ - مالك بن النبي، مشكلة الثقافة تر. عبد الصبور شاهين، ط 4، الجزائر الملكية، ص 47.

2-المقاربة الخلدونية:

أ- المقاربة الايكولوجية:

البيئة بتكوينها المعقدة، من مناخ، هواء، جغرافية الموقع بما في ذلك جوارية الشواطئ أو الشط عنها، ملامح طبيعية تداخل الطبيعة الإنسانية، وتعالج جوهرها لتشكّل الطبع الذي ظاهره المزاج، أو الحالة النفسية التي إنما أن تكون متزنة، تطرحها التؤدة، أو متهورة يغلب عليها الطبع العصبي، المولد لأشكال من اللاسواء دون إهمال هذه النقطة في بناء الأدوار الريادية القهرية كمتفصلات فردية، تنصهر في القال الجمعي.

قصد الانجاز الحضاري:

ولعل هذا هو ما قصده، "ول ديورانت" صاح كتاب "قصة" الحضارة.

من أن هذه الأخيرة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق.

ومن ين الأقاليم، يرجع ابن خلدون الأقاليم المتوسطة الموسومة بالاعتدال، ويأين ما ينتج عنها من معاني وعلوم وصنائع، كما يعرض من عوارض للمنحرف من الأقاليم.

يقول صاحب المقدمة: "عن الأقاليم المعتدلة وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأدبا حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها ... وذلك أن الأنبياء والرسل، إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم قال تعالى: "كنتم خير أمة لأخرجت للناس" وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله.¹

ومن أعدل المعتدل، أقاليم العراق والشام لتوسطها جميع الاتجاهات.

¹ - عبد الرحمن ابن خلدون: مقدمة العلامة ابن خلدون المسعى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لبنان، دار الفكر، 2012، ص 80.

ثم يستغرق في اللغة الواصفة، لأهل الأقاليم البعيدة عن الاعتدال، التي يسكن أهلها الكهوف، وتغلب عليهم طبيعة التوحش في المزاج والضاق جامع القول فيهم: "أنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعض كذا المقابلة ... لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ... وكذلك أحوالهم في الديانة، فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو في الأقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن ... ومثل أهل مالي وكوكو، والنكروور".¹

ذاكرا فاعلية رطوبة البحر في الاعتدال.

مردفا الفرح والطيش لانسياب الحرارة، وتصدر الشمس كبد السماء ليقيم جلاء المقارنة بين أهل مصر وأهل المغرب.

"كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى إنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعمامة مآكلهم من أسواقهم، ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعدس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين اطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى إن الرجل ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ أي ينقص".²

في ظل المناظرة القائمة على المقارنة، الكاشفة لأسباب تباين المفارقة وذلك على ضوء البرنامج الغذائي اليومي التداولي وانعكاساته، فهؤلاء الفاقدين للحبوب والأمم من أهل القفار أحسن حالا في جسومهم وأخلاقهم من أهم التلول المنغمسين في العيش".³

¹ - نفس المرجع السابق، ص 91

² - نفس المرجع السابق، ص 94-95.

³ - نفس المرجع السابق، ص 98.

تحليات ذلك الإقبال على العبادة، بمجافاة الترف، والبلاء الحسن أمام الشدائد، لاعتیاد الجوع.

أما أهل الترف، فهم أولى صرعى المجاعات.

فلا "هالكون في المجاعات إنما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق فان النفس إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون".¹

ب- المقاربة الاجتماعية:

إذا كان الاجتماع البشري هو حقيقة العمران كطرح خلدوني.

فان ثنائية البدو والحضر، طبيعتان سار على غرارهما عمران العرب.

فكان منهم أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلحو القيام

على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن.

مأواهم قد يكون من الطين والحجر، أجمعهم القلب على نية الاستطلاع لا

غير.

أشدهم توحشا العرب وفي معناتهم طعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد

والتركمان والترك بالمشرق.²

أما المفهوم الكمالي فقد لازم الترف، وهذا الأخير قرين الحضر.

وطالما كانت خشونة البداوة سايقة على ترف الحضر ومتقدمة عليه.

كان تقدم أهل البدو نحو مدارم الخلال أليق وأجدر، خاصة ما تعلق منها

بالشجاعة والكرم والإقدام في ساحات الوعي.

وهم مع ذلك أهل شوكة تحملهم النعرة على القربى ويوطد نسيم عصيتهم.

ثم إن العصبية وجبة الغلبة، يحكم النعرة، والتناعر.

¹ - نفس المرجع السابق، ص 99.

² - نفس المرجع السابق، ص 126.

وهي تطمع إلى الرئاسة وتشرئب إليها، وشرف الأنساب، قائد النفس إلى اعتناق المعالي، ولو كان ذلك، بالتداعي والادعاء.

فقد يتشرف كثيرا من الرؤساء على القبائل والعصائب إلى أنساب يلهجون بها إما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب ويتورطون بالدعوى في شعوبه ولا يعملون ما يوقعون في أنفسهم من القدح في رئاستهم والطعن في شرفهم.¹

وقد يعرض عرض آخر على النسب كأن يكون للبيت شرف أول بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة، وشرف النسب أو الحسب له أربعة أجيال فأول جمود يتعري الابن التقليد، فيغيب عنه الاجتهاد، ثم إذا جاء الثالث، توهم أنه ملك لا يفنى نقل إليه، لما يجد من الإكبار لنفسه عن أهل عصبيته، فيفقد الأخذ بمجامع القلوب.²

ومع ذلك فإن الأمم الوحشية ينساب إليها التغلب على ما سواها هذه الغلبة التي لا تفتا هي الأخرى في الانقضاء بانقضاء شغف العيش وزوال قسوته مع تأنس الأمم ومفارقتها للتوحش والبداءة.

ت-المقاربة السياسية:

الملك نتقدمه خلال الخير، وتحفظ زواله، وتديمه عمره، ومتى تسربت خلال الشر، وانسأقت النفس نحو ملاذها، وسكنت حركتها في الإصغاء لأصوات الترف، والبذخ، حلت الدعة وخيم السكون، وتفشت المظالم، فأذن للعصبية بالتفكك، وحل الأذن بمجيئ عصبية أخرى لتحقيق ثنائية الغالب والمغلوب.

¹ - نفس المرجع السابق، ص 135.

² - المرجع نفسه، ص 138.

وظالما: أن المغلوب مولع أبدا بالاقتراء بالغالب في شعاره وزية ونحلته فصائر أحواله وعوائده ... لذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله.

ومن أسباب هذا الحال:

الانغماس في الملاذ للملك وحاشيته دون أفراد القبيلة الآخرين:

"فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا في النعيم وغرقوا في بحر الترف والخصب واستبعدوا إخوانهم من ذلك الجيل".¹

السبب الثاني ضيع الدهر بهم، وهي مقارنة تاريخية تقوم على بيان السبب، وإظهار العلة لاستخلاص القانون.

يقول:

"فإذا استولت على الأولين الأيام وأباد حضرائهم الهرم فطبعتم الدولة، وأكل الدهر عليهم وشرب ... واشتقت غريزة الترف من مكانهم وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدن الإنساني والتغلب السياسي كانت حينئذ عصبية الآخرين مرفوقة، وشارتهم من الغلبة معلومة".²

وإذا كان الطبع الاجتماعي أو المدني كناية عن الاجتماع البشري فإن الملك استلزام لهذه المدنية، حتى لا تعم الفوضى، فلا بد من أنظمة تحد من الطبيعة الحيوانية، الجامعة لشرور الظلم والعدوان، التي متى خلت، حل "التنازع المفضي إلى المقاتلة وهي تؤدي إلى الهرج وسفك الدماء وإذهاب النفوس المفضى ذلك إلى انقطاع النوع وهو مما خصه الباري سبحانه بالمحافظة".³

¹ - نفس المرجع السابق، ص 149

² - نفس المرجع السابق، ص 148.

³ - نفس المرجع السابق، ص 187.

وعليه فإن المقاربة الاتصالية السياسية، من بعد الإنسان العربي ذو الطابع القبلي يجعلها ابن خلدون في مسألة الخلال، كون أن غياب هذه الأخيرة، يوجب اللا اتصاليين الحاكم والمحكومين، وتتولد لديهم هواجس الخوف فيستعينوا بالكذب والحيلة كميكانيزمات للأمن من بطشه فيخيبيوا ويخيبيوا.

وجه ذلك قوله: "ذان الملك إذا كان قاهرا باطشا بالعقوبات، منقبا عن عورات الناس وتعيد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ولا دوامته بالكذب والمكر والخديعة ... وربما خذلوه في مواطئ الحروب والمدافعات"

هذه المقاربة التي تتفصل في الأخلاق، الموصولة بالدين، جعلت مفهوم الحاكمية يختلف عند ابن خلدون بين كونه خلافة وإمامة بما في سمو مقصدها من حراسة الدين وسياسة الدنيا.

مع استخدام المنهج الأثنوغرافي في رصد الأفكار التطورية، لهذه النقطة المركزية، وتجلياتها على الواقع في تاريخي بين الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين، والملك العضوض بعضهم، مع ظهور الفرقة بين المسلمين، خاصة منهم الفرق الشيعة وفرق الخوارج.

التداعيات الحضارية عند ابن خلدون.

الصنائع

الكسب قصد العيش والاستمرار، مع هرمية سلمة في سد الحاجيات، هو ما مفهمه ابن خلدون بالمعاش معتبرا: أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله وهو مفعول من العيش ... ثم إن تحصيل العيش الرزق وكسبه إما أن يكون بأخذه من يد الغير ... بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرما وحياته وإما أن يكون من الحيوان الوحشي فافتراسه ... ويسمى اصطيدا ...

أو يكون من النبات ... ويسعى هذا كله فلحا، وإما أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية ... وتسمى الصنائع من كتابه وتجارة وخياطة وحياسة"¹. والمعاش ارتبط عند بعض العرب بالخرافة، وفي ذلك انحراف عن السعي المطلوب، وهو ما تعلق بدفائن الكنوز واستدعى طرف التعامل مع الغيب. ومن الصناعات التي ذكرها، صناعة النجارة، صناعة الحياكة والخياطة، صناعة التوليد، صناعة الوراقة.

ولعل أوجه الصنائع تكشف عن طرائق حياة أفراد المجتمع، وأنماط التفكير، طرق اكتساب الثقافة، والتثاقف.

العلوم

العلم، حصيلة التفكير، ومسلك في طلب الارتقاء عن الحيوانية، وتحقيق التمايز، ولعل الطبيعة المفكرة للإنسان هي المقتضية لذلك.

ولكن شواهد ذلك قوله: بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر.

فالفكر أساس في اتصال الفرد بأقرانه ضمن طرق الاتصال الاجتماعي وأنماطه، وضرورة بين السلطة والمحكومين، فكل فعل اتصالي، أورد فعل الاوينبي على فكرة.

كما أن العلاقة الاطرادية بين العلم والحضارة تجعل للعلوم كثرة حيث كثر العمران وعظمت الحضارة.

ومن العلوم التي هي من خاصية العرب المسلمين علم الفرائض، ويتناول ما تعلق بالموارثين.

أصول الفقه، التي تعكف على طرق استخلاص الحكم من الدليل الشرعي يفرقه في ذلك على ما يترتب من أحكام بين واجب، ندب، وإباحة. بالإضافة إلى وسائل الاجتهاد: كالإجماع، القياس، وتراكيب الألفاظ.

¹ - نفس المرجع السابق، ص 364.

اللغة

اللغة عنى بها ابن خلدون وفصل في علم اللغة معتبرا فساد ملكة اللسان المدعوة بالإعراب واستفحل الفساد بمخالطة العجم فخرج الكثير من كلام العرب عن مواضعه.

كان هذا الوضع سببا وجيها في التدوين تذكر في ذلك إسهامات الخليل بن أحمد الفراهيدي.

مع ما ذهب إليه الثعالبي في كتابه "فقه اللغة" مؤكدا على ضرورة احترام مواضع الاستعمال اللغوي.

بالإضافة إلى المختصرات التي دونت في هذا الشأن ومن العلوم المندرجة من هذه الشجرة علم البيان فهو من العلوم اللسانية مع الجمع بين صناعة النحو وأحوال المتخاطبين هذا ما جعل أحد اللسانيين يقوم بوعي العلماء العرب بالسياق.

أما الصنف الثاني فيعى بالاستعارة والكتابة.

إما "ثمرة هذا الفن هي في فهم الإعجاز من القرآن لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع الأحوال منطوقة ومفهومة"¹.

¹ - نفس المرجع السابق، ص 572.

الخاتمة:

مما ذهب إليه مالك بن نبي في تشخيصه لازمة الثقافة وعلى غرارها الحضارة، حيث المنطوق الإطار الثقافي والاجتماعي.

أن العالم الإسلامي كان على عهد ابن خلدون يخلق الأفكار، وكان على عهد ابن رشد يبلغها، وأنه بعد ابن خلدون لم يعد قادرا لا على الخلق ولا على التبليغ.

ومما أدرجه مسألة توجيه الثقافة كإطار عام تنطوي تحت لوائه مسألة تصفية الثقافة، واستحضار الجانب الإبداعي ذو اللبنة الجمالية الممتدة في أصول فلسفة الجمال من خلال العملية تركيب الثقافة، ضمن تراكيب من نطاقها اللغة الطبيعية المرمزة.

إلى جانب تفعيل عناصر الإنسان، التراب، الزمن، لتحصيل الحضارة، التي تعد المنتجات المادية، انعكاسا لها وليس العكس.

من جملة هذه الأفكار، يتجلى إسهام الفكر الخلدوني في المدد بإجماليات خصوصية الإنسان العربي السالم في اجتماعه واتصاله البيئي، فثقافة أسباب انصهاره، علل سلطانه، وعليه اندثاره، انه التأسيس لانتروبولوجيا الاتصال التي تنتقي حقا تطبيقيا تنعكس فيه الذات، وهو ما أتمه الخطاب الفكري لمالك بن نبي، معلنا فاعلية الفكرة الدينية، ومدرجا المقاربة المتعددة للعلوم وهي من أحدث المقاربات التي توصل إليها الفكر الحديث نذكر دراسة "هاليداي".

المراجع:

- الإمام العلامة جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، ج 13، ط 1، دمشق، مركز الشرق الأوسط 2011.
- الإمام العلامة جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، ج 15، ط 1، دمشق، مركز الشرق الأوسط 2011.
- عبد الرحمان ابن خلدون: مقدمة العلامة ابن خلدون المسي ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لبنان، دار الفكر، 2012.
- جورج لبيك: السياسة والدين عند ابن خلدون، الجزائر، دار الفرابي، 2008.
- د. عبد المجيد مزيان: النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، 2001.
- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، ط 4، الجزائر، دار الفكر، 1987.
- Yves winkin, anthropologie de la communication, de la théorie au terrain, France, édition de Book, lancier, 2000.